مدير أحواض دامسح جيبش فى محاولة للتفاوض مع العمال المضربين واحدى العاملات ترد عليه فى الهجافون

نحن فى عصر مابعد بولندا

بينما كان الزعيم البولندى ادوارد جيريك يمر بسيارته الليموزين أمام احد المجمعات الاستهلاكية حيث تباع اللحوم وقع بصره على طابور طويل لا آخر له ينتهى كل فرد فيه للفوز بقطعة من اللحم . أثار هذا المشهد صبر جيريك فأخرج رأسه من نافذة السيارة وصاح هاتفا أيها الرفاق ساساعدكم وبعد ذلك بقليل فوجئ البولنديون بسيارة لورى ضخمة تحمل عددا كبيرا من الكراتين لمجلس الوزراء

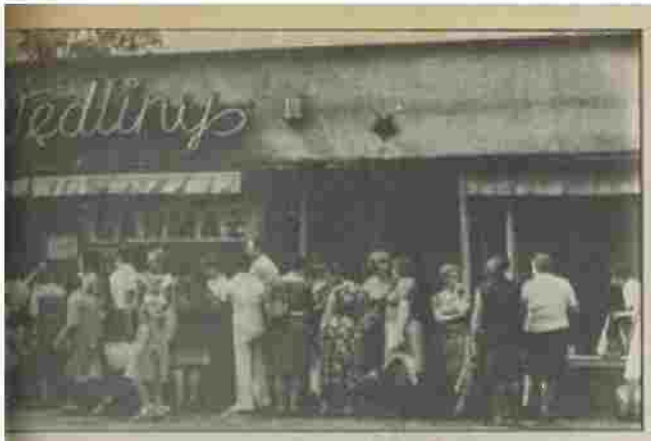

طابور المشترين أمام محل لبيع اللحوم فى مدينة دانسج فى بداية الصيف

عبد المنعم مصطفى

ومامن ليس إلا « كاريكاتير » لسخرية إحدى المجلات البولندية تعليقا على الأحداث الأخيرة فى بولندا . وكأن المجلة أرادت بذلك أن تصم الزعيم البولندى بالعجز الذى يعنى أنه ليس لديه ما يقدمه لمواطنيه سوى كلمات الرثاء أو أنه هو نفسه قد اعتزل فى برج السلطة العاجى فلم يعد يرى أو يسمع أو يعرف كيف تعانى الجماهير وكيف تمكن مواجهة هذه المعاناة

وماحدث فى بولندا هو ظاهرة فذة تستحق الدراسة إذ أنها تثير سؤالاً هاما بسبب التناقض الظاهر بين المقدمات والنتائج فوقوع اضطرابات عمالية والإضراب عن العمل بالإضافة إلى مطالبة المضربين بتشكيل نقابات عمالية حرة . كل ذلك يحمل على التساؤل إذا كانت بولندا هى إحدى دول المنظومة الاشتراكية التى أعلنت مبدأ ديكتاتورية البروليتاريا أو الطبقة العاملة أى تلك النظرية التى تقول إنه رغما للظلم عن طبقة العمال فإن هذه الطبقة ذاتها هى التى ينبغى أن تكون سيدة مصيرها وأن تكون على رأس جهاز السلطة فى الدولة فلماذا الإضراب إذن ؟ ! وقد من تتشكل النقابات الحرة وهل ذلك خلوة العمال من حكومة العمال ؟ !

ولا يعنى مطالب العمال البولنديين سوى أمرين لاثالث لهما . إما أن الطبقة العاملة ليست هى الطبقة الحاكمة . وإما أن الطبقة العاملة الحاكمة قد اجرمت حكمها وأفقدها الحديد على قلة السلطة عن مصالح وآمال وآلام الجماهير وباختصار فإنه يعنى أن الشيوعية فى بولندا تعانى من الانفصام . ولكن لماذا بولندا بالذات ؟

تكاد ظاهرة الاضطرابات والإضرابات العمالية فى الدولة الشيوعية تكون حكرا على بولندا التى عرفت الإضرابات منذ عرفت الشيوعية . لكن كل ذلك كان نتيجة طبيعية للمقدمات صحيحة من وجهة أن سلطات الدين فى بولندا مازال أقوى من سلطات الدولة وأجهزة الكنائس وتراثيل القساوسة مازالت أعلى من شعارات لينين . وهذا ما أكده البابا يوحنا بولس الثانى بابا الفاتيكان البولندى الأصل أثناء زيارته التاريخية لبولندا . فأمام ملايين البولنديين أطلق إدوارد جيريك زعيم الحزب الشيوعى البولندى فى كلمة الترحيب التى ألقاها تحاشية وصول البابا . أنظر يا قداسة البابا إن ما تراه فى بولندا هو حصاد ثلاثين عاما من الشيوعية . ولم يدع البابا الفرصة تفوت قبل أن يرد مؤكدا . سيدى الرئيس . إن بولندا تاج ألف عام من الكاثوليكية .

إن لدى الشعب البولندى نفورا طبيعيا من السرايت مرده إلى الحرب البولندية الروسية عام ١٩٢٠ التى انتصر فيها البولنديون ، وكذلك إلى الآلام التى عانت منها بولندا تحت زحف القوات السوفيتية فى الحرب العالمية الثانية بالإضافة إلى ما تكشف بعد ذلك من اتفاق السوفيت مع هتلر فى معاهدة عدم الاعتداء عام ١٩٣٩ على اقتسام بولندا إلى الأراضى السوفيتية . وقد حدث منذ أيام أن طلب الكاردينال فيشنسكى راعى كنيسة مالت أن البولندية انتصار ملك يوحنا سوبيسكى وهو الذى انتصرت أوروبا تحت قيادته فى القرن السابع عشر على تركيا — بانتصار دولة بولندا على الدولة السوفيتية العام عام ١٩٢٠ فتوجه المصلون بعد ذلك إلى مقابر ضحايا حرب ١٩٢٠ راكعين شعارات الحرب ومنددين بما وصفوه بالمذابح الكنائية للنظام البولندى .

إن بولندا هى الوحيدة بين دول المنظومة الاشتراكية التى لم تشهدها الإضرابات العمالية بقدر ما أكدت حيوية شعبها الذى استطاع عبر ثلاثين عاما أن يضيف مزيدا من المكاسب للحرية وحقوق الإنسان حيث تصدر هناك أكثر من ٩٢ صحيفة ومجلة سرية بشكل شبه منتظم وحيث يناقش البولنديون القضايا العامة بحرية كاملة ويستمعون إلى كافة الإذاعات الغربية ويقرأون صحافتها . وباختصار فكل ذلك هو نتاج الطبيعة الخاصة للشخصية البولندية التى خلقت للرسوخ وتذوقت بالحرية

إن حلية إدوارد جيريك التى بدأت فى عام ١٩٧٠ قد تميزت بتحقيق مزيد من المكاسب عن طريق الليبرالية . ولذى جيريك فإنه يبدو

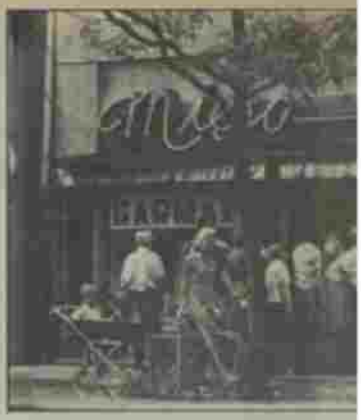

احد العاملين فى احواض عياه واسع ويرتدى بالمنشورات على العمال المضربين فى ساحة الميناء

ادوارد جيريك ... هل يختار الفقر ؟

الانهيار الاقتصادى سبب رواجا لتجارة الفقر

البرالية واضحة فهو الذى اتاح هذا الانفتاح لتدفق اموالنا على الغرب وهو صاحب سياسة الفقرة الاقتصادية حيث غيرت فترة حكمه بتزايد حجم الاستيرادات والديون أيضا . فقد ارتفعت معدلات الاستيراد فى أوائل السبعينات بنسبة كبيرة بلغت ٨,٤٪ عام ١٩٧٠ ، و٢٣,٦٪ عام ١٩٧٢ و٢٥٪ فى عام ١٩٧٣ . ووقفت بولندا فى مقدمة الدول الصناعية الكبرى فهى تابع دولة فى انتاج الصلب والأحدث والعاشرة فى الطاقة والثانية عشرة فى إنتاج سيارات الركوب . بل إن بولندا اصبحت نفسها احدا فى عالم انتاج أجهزة الكمبيوتر . لكن هذه الفقرة الاقتصادية كانت باهظة التكاليف إذ تزيد ديون بولندا على ١٩ مليار دولار وفقا فقد ارتفعت الأسعار بشكل جنونى بينما معدلات الزيادة فى الأجور محدودة

وبسبب سياسة جيريك تحول المواطن البولندى إلى مستهلك يقترف الوقوف فى الطوابير . أى أنه مستهلك لسلع نادرة يزاحم الناس للحصول عليها حتى باتت مسألة الطوابير هذه أمر يتندر به البولنديون على أنفسهم . وكان لابد حتى يكون مستهلكا حقيقيا أن يتوافر لديه الفقرة الشرائية

وإذا كان مايلون برلمانوت هو صاحب مقولة أن الجوع تزحف على بطونها . فإن التاريخ هو صاحب الحقيقة القائلة بأن الشعوب أيضا تثور إذا جاعت أى أنها تهب من أعماقها ، يسقط الجوع ومن وراءه . وهذا بالضبط ماحدث فى بولندا وماحدث قبل ذلك فى ليبريا حين أطاح الجوع بأكثر النظم استقرارا فى أفريقيا . وإذا جاعت اثيوبيا ماجدت فى جفافها بعضة اللحم فقد تضاعفت أسعار اللحوم والمواد الغذائية فى السنوات الأخيرة بدرجة كبيرة إلى الحد الذى لم يعد باستطاعة البولنديين احتماله واصبحت الطوابير الخاوية لمغازن الوسطى تعرف سيمفونية الجوع .

وصحيح أن الأحداث الأخيرة فى بولندا بدأت بالمطالب الاقتصادية للعمال وخاصة بزيادة الرتبات وتخفيض الأسعار وارفع السلع إلا أنها ارتفعت إلى مستوى المطالبة بحق الإضراب وحرية تشكيل نقابات عمالية حرة وحرية الفكر وحق ممارسة الشعائر الدينية . وهى مطالب سياسية جديدة وخطرة تماما على المجتمع الشيوعى . اذا ماالاستجابات لها السلطات البولندية يمكن أن تحرك النظام البولندى نحو اللامركزية لتصبح بولندا وعاء للكاثوليكية والشيوعية واللامركزية والأفكار الليبرالية والسلع الغربية معا

والملاحظ أن الحكومة البولندية قد قدمت تنازلات كبيرة للعمال المضربين لكن هذه التنازلات لم ترض طموحات العمال المطالبين باطير والحرية معا . فالإضرابات مستمرة في جميع نطاقها كل يوم بشكل يهدد الحياة الاقتصادية فى بولندا تماما . ولكن ان أى حد يستمر العمال فى الضغط وتستمر الحكومة فى التنازل ؟

مما لاشك فيه أن لدى حكومة وارسو حدود معينة لايمكنها أبدا مجاوزتها فى تعاملها مع هذه المشكلة تمثل أهمها : الحرص على استمرار النظام القائم بقيادة إدوارد جيريك

الحرص على التمسك بشكل كامل لايجرى الاتحاد السوفيتى بتكرار تجربة المجر وتشيكوسلوفاكيا . ولاشك أيضا أن لدى العمال المضربين حدودا يتوقفون عندها قبول السوبة . وحدودا أخرى يتوقفون عندها عن مواصلة الضغط . أما الحدود الأولى فهى تتضمن استجابة الحكومة للمطالب الخاصة برفع الأجور ورفع المعاناة وكذلك الخاصة بحق العمال فى تشكيل نقاباتهم الحرة وتزايد أهمية هذا المطلب الأخير على ضوء الخوف من بطش النظام بأولئك الذين هزوه بعنف

وفى حالة قبول الحكومة البولندية هذا المطلب الأخير الخاص بحرية العمل النقابى فإنها تصبح فى مواجهة تجربة جديدة تماما حيث توجد مؤسسات دبلوماطية حرة تحمى العمال والدفاع عن مصالحهم ليس ضد أصحاب الأعمال كما هو مألوف ومفترض ولكن ضد الدولة التى رفعت شعار ديكتاتورية البروليتاريا ؟ ويمكن لهذه المؤسسات أن توازن بالتالى فى صنع وصياغة القرار السياسى فى بلادها على نحو قد يتيح لجريك التطبيق البولندى للبرسترويكا ضرب مزيد من التحرر أو خلق طرح صيغة جديدة قد يطلع اليها الأخرون فى شرق أوروبا

وليس من المتصور أن تستمر عملية الخلط العنيف بين الحكومة وجماعات المضربين إذ قد يؤدى ذلك بنا إلى سقوط النظام وإما إلى التصدى المسلح للعمال المضربين وهذان الاحتمالان مازالا خارج دائرة الاحتمالات المرجحة بسبب حسن معالجة الطرفين للمشكلة

ومع تزايد انشغال الأزمة يكثر الحديث عن احتمالات التدخل السوفيتى فى بولندا خاصة ان تجربة المجر وتشيكوسلوفاكيا مازالتا فى الأذهان لكن الحديث عن الموقف السوفيتى ينبغى أن يبدأ أولا بمحاولة التعرف على محددات هذا الموقف . أو العوامل التى تسهم فى صياغته وأهم هذه المحددات هى

□ أن الاتحاد السوفيتى قد دخل افغانستان ولم يخرج بعد ولذا فإن التدخل فى بولندا سيكون عرضة لخطر السوفيت على عدم فتح جبهتين للقتال فى وقت واحد

□ حرص الاتحاد السوفيتى على الجانب الشرقى من الوفاق . أو بعبارة أدق حرصه على توفير المناخ المطلوب للحوار مع الغرب وبصفة خاصة حول الأمن فى أوروبا

□ الخوف من أن تتجاوز أحداث بولندا كل حدود الحساب وحدود الخيرقراطية . فلا هو يريدها أن تسقط النظام ولا هو يريد أن تنتقل عدواها إلى جيرانها من دول المنظمة التركسيد

وبعد محددات الموقف السوفيتى يمكن القول بأن احتمالات التدخل السوفيتى المباشر كما حدث فى المجر وتشيكوسلوفاكيا ربما كانت أقل كثيرا مما يتصور البعض لكن ذلك لايعنى أن السوفيت سيدعون القوة الناعمة تسقط فى سلة الأمريكيين إذ يبدو من صمت السوفيت ثم من البيانات الخوالية التى تليعها وكالة تاس السوفيتية أنهم راضون تماما عن الأسلوب الذى يواجه به جيريك الأزمة لكن استمرار الاضرابات قد يدفع السوفيت إلى التفكير فى البحث عن عمليات استئصال جراحى تتم فى هدوء بعيدا عن هدير المدافع وصخب الدبابات مثلما قد يعنى إسقاط جيريك نفسه وطرح بديل آخر له تم اجراء بعض التحركات العسكرية فى شرق أوروبا وبلدان الشرقية بالقرب فى إطار مناورات الخريف التقليدية . ثم تحذير الغرب بلهجة صارمة من التدخل فى أية صورة من صوره . وهكذا قد يكون التدخل العسكرى السوفيتى المباشر احتمالا غير وارد إلا إذا أصبح سقوط بولندا وشيكا وهو مالم يسمح به العمال ومالن يسمح بحدوثه الغرب فالعمال يدركون مخاطر التدخل السوفيتى إلى حد أن معارضى الحكومة يستحدثون هذا الكابوس فى محاولة حث العمال على إنهاء الاضراب . والغرب رغم كل شئ يعى تماما ماذا يعنى سقوط بولندا بالنسبة للسوفيت ولهذا فإن يسمحوا بسقوطها

وجدير بالملاحظة ان النظام البولندى يتحرك ببطء حركة غير طاهرة صوب مزيد من الليبرالية وهو مانكشفه متابعة لتجربة بولندا على مدى ثلاثين عاما . ولاشك أن الغرب والولايات المتحدة بالذات قد لعبت دورا ملموسا فى هذا الشأن من خلال المساعدات الاقتصادية والفنية والمنح الدراسية وأيضا عبر المهاجرين البولنديين فى الولايات المتحدة والذين يسعون دائب الى عودة بولندا الوطن الحر

ولعل مقالة البابا يوحنا بولس الثانى أبرز الزعماء السياسيين للكاثوليك فى ميدان القديس بطرس أمام آلاف المصلين الذين احتشدوا للصلاة من أجل بولندا يشير إلى مايتطلع اليه الكاثوليك داخل بولندا وخارجها . فقد قال البابا للجماهير : صلوا من أجل بلدى وزملوا من بعدى . يا أبانا الرب . يا أبانا السيد . امنح تركاتك للوطن الحر .